A LITERARY READING IN THE LINGUISTIC EFFORTS OF IBN QUTAYBA IN HIS BOOK
ADAB AL-KĀTĪB "THE WRITER'S LITERATURE"

Saleh ABBOUD ¹

Abstract:

Istanbul / Türkiye
p. 577-586

Received: 25/11/2021
Accepted: 15/12/2021
Published: 01/01/2022

This article has been scanned I
iThenticat No plagiarism
detected

Ibn Qutayba (d. 276 AH / 889 AD) was attentive in both the Arabic linguistics and its literature, whereas he hath assorted numerous workbooks which testify his care about, and those who came after, have been benefited from his critical material on the fields of language and literature, this incipit of the research is concerned with reading Ibn Qutayba's linguistic views through the subject of his book Adab al-Kātib "The Writer's Literature" particularly those related to orthography and solecism in the Arabs' language, and the importance of the research lies in shedding light on the Arab linguistic legacy in the third century AH\ ninth century AD, and displaying the impact of Ibn Qutayba in it, and the objective of the research is to analyze what was mentioned in two important linguistic topics from the book of Adab al-Kātib "The Writer's Literature" which are: the topic of rectification of the hand and the topic of rectification of the tongue, which they are both linguistic topics that show the prevailing linguistics status in the era of Ibn Qutayba, thence, they are also considered a door to understanding the linguistic opinions that the writer gleaned from his wells and sheikhs. The research deals with linguistic problems related to the orthography and the Arab solecism and phonetics among the populace in the era of Ibn Qutayba, relying on a research framework that begins with a preamble considering both the writer and the book, and then deals with the linguistics status in the third century AH through what was mentioned in the book's sermon, then he presents some of what was mentioned in his book Adab al-Kātib "The Writer's Literature" in the two chapters; rectification of the hand and rectification of the tongue, then epitomized the disputations between Ibn Qutayba and the commentators of his book regarding the two mentioned sections, and the research is concluded with a brief epilogue that presents his most prominent conclusions.

Key words: The Writer's Literature, Ibn Qutayba, The Arabic Language In The Third Hijri Century, Solecism.

<http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.15.3>

¹ Researcher, Marj Ibn 'Amer College, Palestine, saleh3abboud@gmail.com, <https://orcid.org/0000-0001-9027-4205>

"قراءة في الجهود اللغوية لابن قتيبة في مؤلفه أدب الكاتب"

صالح عبود 2

الملخص:

اهتم ابن قتيبة (ت. 276هـ/ 889م) بعلوم اللغة العربية وأدبها، وصنف في ذلك تصانيف تشهد على عنايته بها، وقد أفاد من أتى بعده من مادته النقدية في مجالي اللغة والأدب، وتحتّم هذه الإطلالة البحثية بقراءة آراء ابن قتيبة اللغوية من خلال مادة كتابه أدب الكاتب، ولا سيّما المرتبطة منها بالإملاء واللحن في لغة العرب، وتقع أهمية البحث في تسليط الضوء على التراث اللغوي العربي في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وتبيان أثر ابن قتيبة فيه، وغاية البحث تحليل ما ورد في مبحثين لغويين هامّين من كتاب أدب الكاتب هما: مبحث تقويم اليد ومبحث تقويم اللسان، وهما مبحثان لغويان يعبران عن الحالة اللغوية السائدة في عصر ابن قتيبة، كما يعتبران باباً لفهم الآراء اللغوية التي استقاها الكاتب من مصادره وشيوخه.

يعالج البحث إشكاليات لغوية ترتبط بالإملاء وقواعده ولحن اللسان العربي لدى العامة في عصر ابن قتيبة، معتمداً هيكلاً بحثياً يستهلّ بتمهيد يتناول الكاتب والكتاب، ثمّ يتعرّض للحالة اللغوية في القرن الثالث الهجري من خلال ما ورد في خطبة الكتاب، ثمّ يعرض بعض ما ورد في كتابه أدب الكاتب في بابي تقويم اليد وتقويم اللسان، ثمّ يوجز ماهية الخلافات بين ابن قتيبة وشرّاح كتابه إزاء البابين المذكورين، ويختتم البحث بخاتمة موجزة تعرض أبرز استنتاجاته.

الكلمات المفتاحية: أدب الكاتب، ابن قتيبة، اللغة العربية في القرن الهجري الثالث، اللحن.

المقدمة:

بلغ أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الديّوريّ (ت. 276هـ/ 889م) شأنًا كبيرًا في التصنيف والتأليف حتّى اعتبره جلّ من درس أثره العلميّ وعاءً من أوعية العلم، وكان لأثره اللغويّ منزلة سامية، فهو معدود في علماء اللغة العربية المقدّمين (العليّاني، 1991: 64).

من أبرز شيوخه في النحو واللغة الإمامين سهل بن محمد بن عثمان أبو حاتم السجستانيّ (ت. 250هـ/ 863م)، وأبو الفضل العباس بن الفرج الرياشيّ (ت. 257هـ/ 871م) وهما من المعدودين في علوم اللغة العربية (ابن النديم، 2013: 86-87)، وكان من كبار النحاة وأهل اللغة في عصره، وجاء فيه أنّه "كان رأساً في علم اللسان العربيّ، والأخبار وأيام الناس" (الذهبيّ، 1983: 13: 298)، وقد أشاد به العلماء والمترجمون، وقال فيه ابن النديم (ت. 384هـ/ 994م) في باب علماء اللغة العربية والنحو ممّن خلط بين مدرستي: البصرة والكوفة: "وكان ابن قتيبة يغلو في البصريّين إلّا أنّه خلط المذهبين، وحكى في كتبه عن الكوفيّين، وكان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللّغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف، وكتبه بالجليل مرغوبٌ فيها" (ابن النديم، 2013: 115).

² الباحث، الكليّة الجامعيّة مرج ابن عامر، فلسطين، saleh3abboud@gmail.com

ترعرع ابن قتيبة في النصف الثاني من القرن الهجري الثالث، أي في فترة عُرفت تاريخيًا بالعصر العباسي الثاني، وفيها عرفت الدولة العباسية بداية ضعفها وظهور الفتن وتحكم الأمراء ولا سيما الترك في مؤسسة الخلافة (طقوش، 2009: 156-157)، ثم إن ابن قتيبة قد عاصر فترة ارتداد الدولة العباسية عن مذهب المعتزلة الكلامي والعودة إلى مذهب السنة وعلمائها وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت. 241هـ/855م)، إذ رأى بعضهم في ابن قتيبة واحدًا من أئمة القرآن والسنة في عصره (حطيط، 1990: 14؛ العلياني، 1991: 261)، أما في مجال علوم اللغة العربية؛ فقد وُلد ابن قتيبة في عصرٍ قد ترسخت فيه مدارس النحو العربي في الكوفة والبصرة وبغداد، حتى نهل من شيوخ العربية في عصره فصار إمامًا في اللغة والنحو والعروض والقراءات (فضل الله، 2018: 58).

كتاب أدب الكاتب

كتاب إرشاديّ توجيهي أدبيّ لغويّ يعرض فيه كاتبه أصول الكتابة وآدابها ومعارفها، وقد ألفه ابن قتيبة خلال مقامه في بغداد، وأهداه للوزير العباسي عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت. 263هـ/877م) (سلام، 1980: 22)، الذي استوزره الخليفة المتوكل (ت. 247هـ/861م) والمعتمد (ت. 279هـ/892م) (Sourdel, 1971: 3: 824).

عدّه ابن خلدون في المقدمة من الكتب الأربعة الأدبية اللغوية التي تنتهي إليها أصول فنّ الأدب لدى شيوخ فنّ الأدب ودراسته في مجالس العلم عند العرب، إذ قال: "وسمنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفنّ وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرّد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغداديّ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروعٌ عنها" (ابن خلدون، 2004: 2: 276-277).

طُبِعَ كتاب أدب الكاتب عدّة طبعاتٍ تعتمد هذه الدراسة منها طبعة دار الكتب العلمية في بيروت للعام 1988 بشرح عليّ فاعور وتقديمه. شرح كوكبة من العلماء والأدباء كتاب أدب الكاتب، ومن أهمّ شروحاته التي اعتنت بشرحه وتبسيطه والوقوف عليه وعلى ما تجاوز فيه: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيّد البطليوسيّ الأندلسيّ (ت. 521هـ/1127م)، وكتاب شرح أدب الكاتب لموهوب بن أحمد أبو منصور الجواليقي (ت. 540هـ/1145م)، وهما معتمدان في هذه الدراسة.

يُقسم الكتاب إلى أربعة أقسام: أولها كتاب المعرفة، ثمّ كتاب تقويم اليد، ثمّ كتاب تقويم اللسان، ثمّ كتاب معاني أبنية الأفعال، ولكلّ قسمٍ منها أبوابٌ ومباحثٌ لها تفصيلها، ويعرض شواهدا وأمثلة مع تعليقه عليها وشرحه للغريب فيها، وتهمّت هذه المقالة بمبحثين هما: مبحث تقويم اليد ومبحث تقويم اللسان.

الحالة اللغوية الأدبية في عصر ابن قتيبة كما يصفها في أدب الكاتب

يمكن الاعتماد عند وصف حالة اللغة العربية في عصر ابن قتيبة على ما أورده في مقدّمة كتابه أدب الكاتب، والتي اعتبرها ابن خلكان (ت. 681هـ/1282م) أهمّ ما ورد في الكتاب، إذ قال: "الناس يقولون إنّ أكثر أهل العلم يقولون: إنّ أدب الكاتب خطبة بلا كتاب، وإصلاح المنطق كتاب بلا خطبة، وهذا فيه نوع تعصّبٍ عليه؛ فإنّ أدب الكاتب قد حوى من كلّ شيء، وهو مفتنٌ، وما أظنّ حملهم على هذا القول إلّا أنّ الخطبة طويلة والإصلاح بغير خطبة" (ابن خلكان، 1978: 3: 43)، ونظرًا لما قيل آنفًا، فإنّه من الهامّ التوقّف عند خطبة الكتاب، لما لها من دورٍ في تحديد تصوّر القُتَيْبِيِّ للمشهد الثقافيّ اللغويّ-تعليمي السائد في القرن الثالث الهجريّ، وفيما يأتي اقتباسٌ لبعض ما ورد في المقدّمة ممّا يصف حال علم اللغة وأهله في عصر الكاتب: "فإنّي رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيّرين، ولأهله كارهين: أمّا النَّاشئ منهم فراغبٌ عن التعليم، والشّادي تاركٌ للازدیاد، والمتأدّب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناسٍ؛ ليدخل في جملة المجدودين، ويخرج عن جملة

المحدودين، فالعلماء مغمورون، وبكرة الجهل مغموعون" (ابن قتيبة، 1988: 9)، تؤكد الفقرة شهادة ابن قتيبة في حال الأدب والمهتمين به في عصره، فمعظم الناس لا يهتمون بالأدب واللغة العربية على حد وصفه، بل إنهم يتشاءمون ويكرهون التعاطي معهما ومع أهلها، وقد ساد في الناشئة رفضهم للتعليم، وأما من طلب العلم منهم ففانق منه بالقليل، وبات الحظ من نصيب الجهلة والهوان من نصيب أهل العلم الذين باتوا غير مشهورين لسيادة الجهل ودولته بين الناس، ويحمل هذا التوصيف العام انطباعاً قُتبيّاً قائماً يعرض الواقع اللغوي والأدبي والتعليمي الشائع في فترة هامة من فترات تاريخ الثقافة العربية وتراثها العلمي واللغوي، تحوّل فيه المشتغل بعلوم الأدب واللغة إلى شخص مُزدكّ محتقر في عين غيره، ليس له من العلم وضروبه إلا الكفاف، فابن قتيبة من القلة الذين خلفوا لمن بعدهم صورةً للمشهد اللغوي والثقافي عند أهل الكتابة في القرن الثالث الهجري، إذ عرض في خطبة كتابه أدب الكاتب كثيراً من شواهد الضعف والتراجع في المستوى الثقافي في البيئة البغدادية التي انقلبت إلى بيئة مادية تتحكم بها أسباب المال والسلطان لا العلم والقلم، وتردّت مُكنة الكاتب والأديب المثقف حتى بات أقصى ما يتغيه النزر القليل من حدود المعارف، وقد بين ابن قتيبة ذلك في وصفه قائلاً: "فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخطّ قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشّعر أبيتاً في مدح قينة أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب، وينظر في شيء من القضاء وحّد المنطق، ثمّ يعترض على كتاب الله بالظن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب وهو لا يدري من نقله، قد رضي عوضاً من الله ومأً عنده بأن يُقال: فلانٌ لطيفٌ وفلانٌ دقيق النظر، يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه؛ فهو يدعوهم الرّعاع والغناء والغُثْر، وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى، وهي به أليق؛ لأنّه جهل وظنّ أن قد علّم، فهاتان جهالتان؛ ولأنّ هؤلاء جهلوا وعلموا أنّهم يجهلون، ولو أنّ هذا المعجب بنفسه، الزاري على الإسلام برأيه، نظر من جهة النظر لأحياء الله بنور الهدى وتلّج اليقين، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصّب لذلك وعاداه. وانحرف عنه إلى علم قد سلّمه ولأمثاله المسلمون، وقلّ فيه المتناظرون" (ابن قتيبة، 1988: 10). تلك هي حال الكتاب وأهل الكتابة في عصر ابن قتيبة، فجاء كتابه أدب الكاتب محاولةً منه لتيسير المعرفة اللغوية اللازمة لدى أهل الصنعة من الكتاب والمتعلّمين، ولترشيد تلك الصنعة، وإمداد أهلها ومُتعلّميها بسبب تحسينها وتعزيزها، وهذا ما صرّح به في خطبة الكتاب حين قال: "فلما أن رأيت هذا الشأن كلّ يوم إلى نقصان، وخشيتُ أن يذهب رسمه ويغفوَ أثره، جعلتُ له حظاً من عنايتي، وجزءاً من تأليفي، فعملتُ لمُغفِلِ التّأديب كُتباً خفّافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كلّ كتابٍ منها على فنٍّ، وأعفّيته من التطويل والتنقيص، لأنشطه ليحفّظه ودراسته إن فاءت به همّة وأقيد عليه بما أضلّ من المعرفة، وأستظهر له بإعداد الآلة لزمان الإدالة أو لقضاء الوطر عند تبين فضل النظر..." (ابن قتيبة، 1988: 14).

جاء باب المعرفة في كتاب أدب الكاتب محاولةً مبكرةً لابن قتيبة لتصحيح ما وقع به الكتاب والمتعلّمون والعامّة من أخطاءٍ شاعت بينهم، وهو في ذلك من أوائل من قوّموا أهل اللغة على نظام "قل ولا تقل"، فتراه يحشد الألفاظ والعبارات التي وقع الناس فيها ووضعوها في غير موضعها، فيضع الفروق اللغوية بين الألفاظ، مبيّناً وجهها ومدلولها مع الشاهد والدليل، ولتمثيل ذلك قال ابن قتيبة في هذا السياق: "ومن ذلك: المأتم، يذهب الناس إلى أنّه المصيبة، ويقولون: كنّا في مأتم، وليس كذلك، إنّما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشرّ، والجمع مأتم، والصواب أن يقولوا: كنّا في منّاحة، وإنّما قيل لها منّاحة من النوائج لتقبلهنّ عند البكاء، يقال: الجبلان يتناوحيان، إذا تقابلا، وكذلك الشجر، وقال الشاعر:

عشيّة قام النّائح وشققت... جيوبٌ بأيدي مآتمٍ وخدود

أي: بأيدي نساء، وقال آخر:

رمتّه أناة من ربيعة عامر... نؤوم الضّحا في مآتمٍ أي مآتم

يريد في نساء أي نساء" (ابن قتيبة، 1988: 26-27).

يتّضح من خلال قراءة المادة اللغوية في كتاب باب المعرفة أنّ ثمة خلطاً كبيراً عند الناس والكتّاب بين ألفاظ ومعاني تعكس تدنيّاً في تحديدها ومعرفة مدلولاتها على النحو اللغوي والمعجمي السليم.

يتطرق ابن قتيبة في كتاب المعرفة إلى الكثير من القضايا اللغوية على غرار: القوالب المزوجة المستخدمة في اللغة العربية، باب ما يستعمل من الدعاء في الكلام، تأويل كلام مستعمل عند العرب يشرح خلاله الكثير من العبارات الشائعة والتي يساء استخدامها بغير ما تدلّ عليه، أصول أسماء الناس وتبيان حقولها من عالم النبات والطيور والحيوانات والحشرات والصفات وغير ذلك، ثمّ يشرح الكثير من ألفاظ الكون والطبيعة والفضاء والنبات وغير ذلك من الصفات المرتبطة بالخيال والناس، ثمّ يعقد باباً يتناول فيه الفروق اللغوية في كثير من الألفاظ المرتبطة بالإنسان وجسده والأصوات الأطعمة والأشربة والدوابّ والثياب والأسلحة والطيور، ثمّ تناول نماذج من الأضداد، والمزيد من الألفاظ المستخدمة في عصره وبيئة العامة والخاصة فيه.

مبحث كتاب تقويم اليد

يصبو الكتاب إلى تيسير قواعد الكتابة والإملاء للمتعلمين وأهل الكتابة؛ كي لا يقعوا في أخطاءٍ مردّها الجهل بأصول الكتابة والرسم في كلام العرب، وقد بيّن ابن قتيبة في هذا الكتاب كيفية كتابة الحروف والكلمات في كثير من الألفاظ محلّ الاستعمال عند العامة والخاصة، فاتّخذ طريقة التصويب أسلوباً لعرض الطريقة الفضلى للكتابة.

يتناول الكاتب في هذا الباب عدّة مسائل يهدف من خلالها إلى تقويم الكتابة وطرائقها، ومن أبرز مباحثه: حذف حروفٍ لدى الكتابة كحروف المدّ واللّين، وهمزة الوصل في الأسماء، والمكتوب من الأسماء والأفعال بالألف والياء، وكيفية كتابة المقصور من الأسماء والأفعال، وكذلك مع المنقوص والهمزة في الأفعال والأسماء المنتهية بها، والتذكير والتأنيث وأحكامهما في العدد، وغير ذلك. يستهلّ ابن قتيبة هذا الفصل من كتابه بعرض قاعدة لغوية أصوليّة يمهّد من خلالها لعرض التفاصيل والشواهد التي تتبع لها، وجاء في قاعدته تلك قوله: "الكتّاب يزيدون في كتابة الحرف ما ليس في وزنه؛ ليفصلوا بالزيادة بينه وبين المشبه له، ويسقطون من الحرف ما هو في وزنه، استخفافاً واستغناء بما أبقى عما ألقي، إذا كان في الكلام دليل على ما يحذفون من الكلمة. والعرب كذلك يفعلون، ويحذفون من اللفظة والكلمة، نحو قولهم: "لم يك" وهم يريدون "لم يكن"، ولم "أبُل" وهم يريدون "لم أبال"، ويختزلون من الكلام ما لا يتمّ الكلام على الحقيقة إلّا به، استخفافاً وإيجازاً، إذا عَرَفَ المخاطب ما يعنون به" (ابن قتيبة، 1988: 161)، فالتسهيل والتخفيف من أساليب اللغة العربية المتبعة نزولاً عند كثرة الاستعمال اللغوي للألفاظ الشائعة بين الناس، وعليه يعرض ابن قتيبة شواهد في الكتاب، ومن أمثلة ذلك تمثيلاً لا حصراً:

- كيفية كتابة "باسم الله": "تكتب "بسم الله" إذا افتتحت بها كتاباً أو ابتدأت بها كلاماً بغير ألفٍ؛ لأنها كثرت في هذه الحال على الألسنة، في كلّ كتاب يكتب، وعند الفَرَع والجزَع، وعند الخبر يَرُدُّ، والطعام يُوكَل، فحذفت الألف استخفافاً، فإذا توسّطت كلاماً أثبت فيها ألفاً نحو: "أبدأ باسم الله" و"أختم باسم الله"، وقال الله عزّ وجلّ: (اقرأ باسم ربك) (و) فسبّح باسم ربك العظيم، وكذلك كتبت في المصاحف في الحالين مبتدأةً ومتوسطةً" (ابن قتيبة، 1988: 161).

- كيفية كتابة الأفعال التي تبدأ بهمزة الوصل التي تليها في حروفها الياء والواو، فيعرض القاعدة من خلال الشاهد، وفي ذلك يقول: "تقول: "إيت فلاناً"، و "إيدن لي على الأمير"، و "إيق يا غلام" و "إيجل من ربك"، و "إيس من كذا وكذا"، وفي الجمع "ايتوا"، "ايدنوا"، كلّ ذلك تثبت فيه الياء، فإذا وصلت ذلك بفاءٍ أو واوٍ أعدت ما كان من ذوات الواو إلى الواو، وما كان من ذوات الياء إلى الياء، وما كان مهموزاً إلى الألف، فكتبت "فأت فلاناً"، "فأذن له عليك"، "فأبق يا غلام"، وكذلك إن اتّصلت بواوٍ، تقول: "وأثوبني، وأذنوا، وأبقوا"، وتقول: "فأوجل من ربك"، "فأوسن في ليلتك"، من الوسن، وكذلك إذا اتّصلت بواوٍ، تقول: "وأوجل من ربك"، "وأوسن"، وتقول في فعل من الميسر: "يسر فلان" وتقول: "فأيسر، وأيسر"، فإن اتّصل هذا بتمّ

أو غيرها من سائر الكلام لم تحذف الياء، وكُتبت: "ايتِ فلاناً ثم ائتيه، ايدن لي على الأمير، ثم ائذن"، قال الله عز وجل: (ومنهم من يقول ائذن لي)، وقال: (ثم ائثوا صفًا) (و) يا صالح ائتنا، والفرق بين الفاء والواو، وبين ثم، أن الفاء والواو يتصلان بالحرف، فكأتهما منه، ولا يجوز أن يفرد واحد منهما كما تفرد ثم؛ لأن ثم منفردة من الحرف" (ابن قتيبة، 1988: 164-165).

- كيفية كتابة الأسماء الأعجمية وغير الأعجمية التي فيها ألف: "تحذف الألف من الأسماء الأعجمية نحو: إبراهيم، وإسماعيل، وإسريئيل وأسحق، استنقلاً لها، كما تترك صرفها، وكذلك سُلَيْمَن وهَرُونَ وسائر الأسماء المستعجمة؛ فأما ما لا يستعمل من الأسماء الأعجمية، ولا يُتسمَّى به كثيراً، نحو قارون، وطالوت، وجالوت، وهاروت، وماروت؛ فلا تحذف الألف في شيء من ذلك، إلا داود فإنه لا تحذف ألفه، وإن كان مستعملاً؛ لأن الألف لو حذفت وقد حذفت منه إحدى الواوين لاختل الحرف، وما كان على فاعل مثل صلح، وخلد، وملك، فإن حذف الألف منه حسنٌ وإثباتها حسنٌ، وإذا جاء منها أسماء ليس يكثر استعمالها نحو جابر، وحاتم، وحامد، وسالم، فلا يجوز حذف الألف في شيء منها، وكل اسمٍ منها يستعمل كثيراً ويجوز إدخال الألف واللام فيه - نحو الحرث -، فإنك تكتبه مع إثبات الألف واللام بغير ألف؛ فإذا حذفت الألف واللام أثبت الألف فكتبت "حارث" قال ذاك"، وقال بعض أصحاب الإعراب: إنهم كتبوه بالألف عند حذف الألف واللام؛ لئلا يشبه "حرباً" فيلتبس به، ثم أدخلوا الألف واللام فحذفوا الألف حين أمنوا اللبس؛ لأنهم لا يقولون الحرب، وهو اسم رجل، وأما ما كان مثال: عُثْمَن، ومَرْوَان، وسُفْيَن، فإثبات الألف حسنٌ، والحذف حسنٌ إذا كثر، ومن ذلك ما لم تحذف ألفه وهو مستعملٌ؛ مثل: عِمْران، وكتبوا "الرَّحْمَن" بغير ألفٍ حين أثبتوا الألف واللام، وإذا حذفت الألف واللام فأحْبُ إليَّ أن يعيدوا الألف فيكتبوا "رَحْمَان الدنيا والآخرة"، وأما شيطان ودِهْقَان فإثبات الألف فيهما حسنٌ، وكان القياس أن يكتبوهما إذا دخلت الألف واللام فيهما بغير ألفٍ، إلا أن الكتاب مجموعون على ترك القياس" (ابن قتيبة، 1988: 169).

يعالج ابن قتيبة الكثير من القضايا الصرفية والإملائية الهامة والضرورية للمشتغلين بالكتابة وشؤونها، وليس ببعيد أنه قد أورد في كتابه كثيراً من الأغلاط التي لاحظها في كراريسهم ونصوصهم المدونة خلال إقامته في بغداد، وقد وصلته تلك المواد المغلوطة من خلال تدريسه وعمله اليومي آنذاك.

مبحث كتاب تقويم اللسان

اهتم ابن قتيبة في هذا الباب بمعالجة اللحن اللغوي التي انتشرت في عصره بين المشتغلين بالكتابة، وقد انصرف في ذلك إلى تصحيح الألفاظ المتقاربة في النطق والدلالة، توضيحاً للبس الواقع بينها عند الكتاب، والذي يؤدي لانتشار اللحن أي الخطأ في الكلام كم يبين ابن قتيبة (ابن قتيبة، 1988: 215)، إذ اجتهد في تبيين الفروق الدلالية بين الكلمات التي تتقارب في النطق وتختلف معانيها، ولا يعرف الناس ما بينها من فروق، ومن ذلك أفاظٌ تحرى الدقة في استخدامها مما يبدأ بحرفين متقاربين في اللفظ ملتبسين في المعنى إن لم تحري الألسن فيها مجرى التنبيه والدقة، ومنها: "الجهْدُ الطاقة، تقول: هذا جهْدِي أي طاقتي، والجهْدُ المشقة، تقول: فعلت ذلك بجهْدٍ، وتقول: إجهْدُ جهْدَكَ، ومنهم من يجعل الجُهْدَ والجُهْدَ واحداً، ويختلج بقوله تعالى: (والذين لا يجدون إلا جهْدَهُم)، وقد فُرى جهْدَهُم" (ابن قتيبة، 1988: 207)، فهو يضع الرأي الغالب في لغة العرب، ثم يفسره ويمثل له بشاهده اللغوي، وهو يفي حالاتٍ معينة - كما هو حال الشاهد السابق - يذكر احتمال كون المرجوح صحيحاً في اللغة، مما يدل على سعة اطلاعه من جهةٍ وحرصه على تحري الدقة من جهةٍ أخرى، وهذا ما انتهجه في ألفاظ كثيرة في الكتاب، كقوله في لفظة "الحور" والفروق بينها مفتوحة الحاء المهملة وضمها: "والحور الرجوع عن الشيء، ومنه: أعوذ بالله من الحور بعد الكور، والحور النقصان، قال الشاعر:

لا تبخلن فإن الدهر ذو غيرٍ والدمُّ يبقى وزاد القوم في حورٍ" (ابن قتيبة، 1988: 212).

بُوب ابن قتيبة أصناف اللّحن الواقع في الألفاظ الشائعة واستخداماتها عند الناس في أبوابٍ، وكان منهجه في ذلك توزيع تلك الألفاظ في صفاتٍ تجتمع بينها، واتباع ذلك منهجاً في ترتيبها وفق علاقاتها ببعضها لفظاً ورسماً ومعنى، ومن تلك العلاقات التي اعتمدها في كتاب تقويم اللسان: التقارب في اللفظ والمعنى بين الألفاظ والحروف التي تكوّنهما، التقارب في الألفاظ والحروف المكوّنة لها مع الاختلاف في المعنى، التقارب في الألفاظ مع اختلاف صرف مبانيها وما له من أثرٍ في تغيير المعنى، التقارب في الجذر مع اختلاف المصادر وأسمائها وأفعالها منه، الشبه الواقع بالهمزة وما يقع من خلافٍ في المعنى بها، التشديد والتخفيف في حروف الألفاظ وما يطرأ عنه من اختلافٍ في المعنى، التحريك والتسكين في حروف الألفاظ المشتركة وما يفرزه من اختلافٍ في المعنى.

يعالج ابن قتيبة في كتاب تقويم اللسان ظواهر اللحن الشائعة من خلال ضبط بعض القواعد اللفظية والإملائية بغية تصحيح الاستخدام اللغوي للألفاظ إزاء معانيها الصحيحة، وقد ركّز في هذا الكتاب على بعض أسباب اللحن البارزة ومنها: التصحيف، التحريك والتسكين، الهمز والتخفيف، التضعيف والتخفيف، وهي من عوامل دخول العامة في كثيرٍ من الأخطاء واللحن واللبس الحاصل في اللغة العربية في عصره.

حاول ابن قتيبة تصحيح العديد من الأبنية اللغوية التي أفسدها اللحن المتفشّي في عصره، وأسهم في ضبطها صرفياً وشكلياً من حيث حروف الألفاظ وزيادتها ونواقصها وحذفها وتقديمها وتأخيرها، وشرع في ذلك مع الكثير منها، مستأنساً بآراء شيوخه ومن سبقه وما ضبطته العرب في ذلك. لم ينف ابن قتيبة صحة الضعيف في الألفاظ المستعملة مكان الأقوى، وإن فضل استعمال الأقوى على الضعيف، وغايته في ذلك الإرشاد والترشيد اللغوي، ومن أمثلة ذلك عنده:

"يقولون دهمهم الأمر، ودههم أجود، ويقولون: سَمَلَهُم الأمر، وسَمَلَهُم أجود (ابن قتيبة، 1988: 274)، "ويقولون الجنّازة، والأجود الجنّازة، ويقولون ما دلالتك على كذا، والأجود ما دلالتك، ويقولون الحفاوة والأجود الحفاوة" (ابن قتيبة، 1988: 275).

ما يقدمه ابن قتيبة من موادّ لغوية سريعة مباشرة يعكس توجهه الإرشادي المنهجي في الكتاب برمته، فهو لا يعدو كونه مرشداً سلساً يعتمد التحديد والشواهد العينية دون الإسهاب حولها، ممّا يبرز نظرة العلماء إلى كونه أقلّ شأنًا من خطبة الكتاب التي تتجّه نحوًا يعتمد العرض والتبرير والتوسعة في القضية.

يدلّ منهج ابن قتيبة في كتابه ومحتواه اللغوي على بقاء النصّ القرآنيّ والشعر العربيّ وحدةً لغويةً محكمةً يحكم إليها اللغويّون عند الكتابة والصناعة اللغوية، وهو في ذلك على منهج شيوخه ومن جاؤوا بعده، وأنّ خطابه في الكتاب موجّه لقطاع من الكتاب والعامة من الذين لا يقعون ضمن الجهلاء باللغة واستعمالاتها، وقد تبين من خلال الوقوف على مادّة ابن قتيبة في كتابه عدم التفاته لتطور اللحن وأبوابه التي طرقها، بل تبّه منه دون شرح أسبابه وتداعياته اللغوية والحضارية، وهذا يعود لكونه كتاباً مرشداً لا بحثاً لغوياً موسّعاً في الظاهرة.

أضفت ثقافة ابن قتيبة اللغوية الواسعة في كتابه أدب الكاتب عمومًا وكتابي: تقويم اليد وتقويم اللسان فيه بنحوٍ خاصّ، للمادّة اللغوية بُعداً موسوعيّاً يلتقي كثيراً مع عادة اللغويّين المعاصرين له، ممّن واجهوا انتشار اللحن عند العامة والخاصّة بمنهجية شبيهة، ومنهم: يعقوب بن إسحاق ابن السيّكيت (ت. 244هـ/ 858م) في كتابه إصلاح المنطق، وشيخه أبو حاتم السجستانيّ (ت. 250هـ/ 863م) في كتابه لحن العامة، كما تشهد الكتب التي ألّفت بعده على تأثرها بمنهجه في كتابه أدب الكاتب، ولعلّ أبرز تلك الكتب التي يتضح تأثرها به كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيبانيّ المعروف بشعلب (ت. 291هـ/ 904م)، وكتاب لحن العامة لأبي بكر الزبيديّ (ت. 379هـ/ 989م).

ليس من شكٍّ أنَّ كتاب أدب الكاتب قد شكّل موجّهًا مفيدًا للكتاب والعامة من الذين نهلوا منه وثقّفوا لسانهم ولغتهم المكتوبة، فنشطوا به من الخطأ إلى الصواب، ويمكن القول إنّ ابن قتيبة قد نجح في تحقيق غاية كتابه، وكان أمينًا لتلك الغاية، وأنّ منهجه الميسور المختصر واحدٌ من أسباب ذلك النجاح، ومن أسباب رواج الكتاب في عصره وبعده.

شرح أدب الكاتب

برز من شرح كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة اثنان، أحدهما في المشرق، وهو أبو منصور الجواليقي (ت. 540هـ/ 1145م)، والثاني في المغرب، وهو ابن السيّد البطليوسيّ الأندلسي (ت. 521هـ/ 1127م)، ونتعرض في السياق الآتي لغايتيهما من شرح الكتاب، وما وقع فيهما من خلافاً مع ابن قتيبة.

كتاب شرح أدب الكاتب لموهوب بن أحمد أبي منصور الجواليقي (ت. 540هـ/ 1145م)

يحدّد أبو منصور غايته من شرح أدب الكاتب لابن قتيبة في مقدّمة شرحه، ويذكر أنّه يقصد من ذلك شرح خطبة الكتاب، نزولاً عند طلب جماعةٍ من أهل العلم ذلك، تبياناً للما زُدّ عليه فيه من غيره من العلماء، وتوضيحاً لما وقع فيه من الأخطاء والمشكلات، وتفسيراً لما ورد فيه من أبياتٍ شعريّة، فهو يتتبع الخطبة عبارةً تلو العبارة، ويلتزم شرحها، والتعليق عليها بإسهابٍ، ثمّ ينتقل من الخطبة إلى مادّة الكتاب؛ فيختار منها عيّناً ويضرب عن أخرى، فيشرح ويفسّر ويعلّق على ما يختاره منه، ويرصد الأبيات الشعريّة الواردة فيها، فيفسّرها ويبيّن مناسباتها، ويترجم لأصحابها في كثيرٍ منها، مبيناً زللها وما صحّحه غيره فيها (الجواليقي، 1995: 1).

وجّه الجواليقي نقده لكتاب أدب الكاتب من خلال اعتراضاته على بعض ما ورد فيه، ولا سيّما في المسائل المرتبطة بالجوانب الصرفيّة وظواهر لحن العامّة، وقد جاء عنده تصويبٌ لكثيرٍ ممّا اعتبره ابن قتيبة خطأً، فعُدل عن رأيه فيه، ونبّه إلى رأيه باعتباره جائزاً في اللّغة العربيّة. من أمثلة ذلك اعتراضه على قول ابن قتيبة في تخطئة من يقول "سمكٌ مالحٌ" واستشهاده بشعرٍ لشاعرٍ يدعى غُذافرٍ، ليس شعره حجّةً عند أهل اللّغة، ففند الجواليقي رأي ابن قتيبة مستشهداً ببيتٍ من شعر جريرٍ يدلّ على صحّة قولهم سمكٌ مالحٌ (الجواليقي، 1995: 243)، وثمّة كثيرٌ من الأمثلة والشواهد الدالّة على وقوع ابن قتيبة في أغلاط من وجهة نظر من كانوا من بعده وشرحوا كتابه.

كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيّد البطليوسيّ الأندلسي (ت. 521هـ/ 1127م)

يذهب الشارح في هذا الكتاب إلى انتقاء مواضع معيّنة من مادّة كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، ويهتمّ فيما وقع فيه الخطأ، وغايته من ذلك التنبيه عليها وتصحيح ما وقع فيها الخطأ. ينوّه ابن السيّد البطليوسيّ إلى أنّ ما وقع من خطأ في الكتاب ليس كلّ غلطٍ من ابن قتيبة نفسه، فهو يقسّمه إلى أقسامٍ أربعة هي:

1. مواضع أخطأ فيها ابن قتيبة فينبّه عليها وعلى خطأه فيها.
2. مواضع وقع فيها الاضطراب والبلبلّة، حيث سمح فيها ما منعه في مواضع أخرى.
3. اعتماده في باب لحن العامّة على رأي شيخه أبي حاتم السجستانيّ نقلاً عن الأصمعيّ، وتعاميه عن رأي غيره من اللّغويين الكبار ممّن لا يتفقون معه؛ ممّا يوهن قوله.
4. مواضع وقع فيها الغلط بسبب الناقلين لمادّة الكتاب لا لمؤلّفه.

رصد ابن السيّد البطليوسيّ كثيراً من المسائل التي تشهد على وقوع الأقسام الأربعة من مواضع الغلط في مادّة أدب الكاتب، فنقلها عن الكتاب، ثمّ ذكر أقوالاً تفنّدها واستشهد لرأي المخالفين بحججٍ وشواهد تقوّي قولهم وتضعف قول ابن قتيبة، وقد توسّع في بعضها كما فعل في باب قولهم في لفظة "الحشمة" ومعناها (البطليوسيّ، 1996: 2: 11-13) وغيرها.

جاء منهج البطليوسي واضحًا في تعاطيه مع ما وقع في أدب الكاتب من أغلاط، إذ عرض قول ابن قتيبة مقتبسًا، ثمّ عرض آراء غيره مع ذكر أسمائهم، ثمّ استأنس بشاهدٍ أو أكثر يدعم رأيهم ويفند رأي ابن قتيبة في المسألة.

استنتاجات الدراسة

- ينضمّ ابن قتيبة إلى كوكبة اللغويين العرب الذي حاولوا بجهودهم اللغوية خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أن ينهضوا باللغة العربية وعلومها من خلال تأليف الكتب الموجهة الهادفة والتي تنفع الخاصة والعامة على حدّ سواء.
- اجتهد ابن قتيبة في مواصلة مسار شيوخه وفيهم السجستاني والرياشي وغيرهما من علماء اللغة، فاهتمّ بالتنبيه على وجوه الصواب في الألفاظ كتاباً وصياغةً وصرفاً ومشافهةً، وذلك صوتاً للضوابط اللغوية والقواعد الأصولية التي تصون اللغة ومستخدميها من اللحن والخطأ والزكاة، وكان تأثره بشيوخه في اللغة واضحاً في متن الكتاب، فقد أخذ عنهم وجمع وعاء كتابه من أوعيتهم.
- اعتمد ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب على مقاييس لغوية عمادها المشهور عند العرب ولغتهم، فاعتمده في تصويبه للأخطاء في الكتابة والنطق، ويدلّ على ذلك كثرة الشواهد الشعرية والقرآنية التي دلّل بها على مادته في الكتاب.
- يعتبر ابن قتيبة من المتشدّدين في وجوه قبول الصواب ودفع الخطأ، فهو من الذين يُقبلون على الأفصح المشهور، ويدعون ما عداه، بل يعتبرونه لحناً.
- وجّه ابن قتيبة كتابه ومادته فيه لشريحة الكتاب الخاملين المتهاونين في اللغة وضوابطها، فجاء كتابه مرشداً لهم ودليلاً عملياً يعينهم في صناعتهم.
- يبدو من خلال مادة كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة أنّ المشهد الثقافي في عصره يعاني من ضعفٍ ووهنٍ أسبابه مرتبطة بميل العامة والخاصة عن طلب العلم بطريقه وسبله العلمية السديدة.
- تستنتج الدراسة أنّ ابن قتيبة قد يسرّ في كتابه لجمهوره ما أمكنه من أسباب الشرح الموجز والمقارنات السهلة كي يجعلها مادةً لغويةً يسترشد بها المتعلّم من العامة والخاصة بما لا تمتنع معه الإفادة عنده، فيعرض الخطأ إزاء الصواب، ويمثّل لذلك، فيوضح الشيء بضده إذا لزم الأمر.
- سعى شارحاً كتاب أدب الكاتب: البطليوسي في الاقتضاب والجواليقي في شرح أدب الكاتب إلى تبيان وجوه ما جاء في الكتاب، وأسهباً في ذلك، وإن خالفاً ابن قتيبة في قضايا ومقاصد لغوية لم يتفق فيها مع الوجه الذي تشدّد فيه وتعصّب للأفصح من وجهة نظر من اعتمد عليهم من شيوخه، فكانا أقلّ تعصّباً منه؛ لقبولهما آراء علماء آخرين غير الذين اعتمدتهم ابن قتيبة مرجعاً في آرائه، فعمداً إلى تبيان الصواب الذي ظنّه ابن قتيبة غلطاً؛ لاقتصاره على مذهب شيوخ وإضراجه عن رأي غيرهم.

ثبث المصادر والمراجع

- البطليوسي، ابن السيد عبد الله بن محمد. (1996). الاقتضاب في شرح أدب الكتاب. تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
- الجواليقي، موهوب. (1995). شرح أدب الكاتب. تحقيق: طيبة حمد بودي. جامعة الكويت: قسم اللغة العربية.
- حطيط، كاظم. (1990). مع ابن قتيبة في العقيدة الإسلامية. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004). مقدمة ابن خلدون. تحقيق: عبد الله محمد الدرويش. دمشق: دار البلخي.
- الذهبي، الإمام محمد بن أحمد بن عثمان. (1983). سير أعلام النبلاء. تحقيق: علي أبو زيد. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- سلام، محمد زغلول. (1980). نوابغ الفكر العربي: ابن قتيبة. القاهرة: دار المعارف.
- طقوش، محمد سهيل. (2009). تاريخ الدولة العباسية. بيروت: دار النفائس.
- العلباني، علي بن نفع. (1991). عقيدة الإمام ابن قتيبة. الطائف: مكتبة الصديق.
- فضل الله، محمد عبد الله. (2018). "آراء ابن قتيبة النقدية". مجلة أدب النيلين 3/3، 54-77.
- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم. (1988). أدب الكاتب. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن النديم، محمد. (2013). الفهرست. بيروت: دار المعرفة.

Sourdel, D. "Ibn Khāḳān". Encyclopaedia of Islam. Second Edition, 1971, 3: 824.